في الثقافة الشعبية ومحو الأمية

د. عدنان عبد الرحيم

مقدمة وتعاريف

يستعمل تعبير الثقافة الشعبية، عادة، للاشارة الى التراث الشفوي للشعوب من حكايا شعبية، وأمثال وحزازير وطرائف وأغان غير مدونة... وهذا الفهم للثقافة الشعبية يميز بين ثقافة نخبوية تتضمن التراث الأدبي المكتوب، والأعمال الفنية والموسيقية المدونة، وثقافة جماهيرية غير مكتوبة تنتجها وتتمتع بها الجماهير العريضة.

ويعكس هذا الفهم للثقافة نفياً لدور الجماهير الشعبية في انتاج الثقافة (الرسمية) والمدونة، وكذلك ينفي حق تلك الجماهير بالاستمتاع بالنتاج الثقافي النخبوي؛ وقد ساد هذا الفهم للثقافة الشعبية حتى نهاية القرن الماضي، حين كانت أغلبية الشعوب وبشكل خاص الفئات الكادحة تعاني من أمية شبه شاملة، بينما كانت الطبقات السائدة تحتكر أدوات الثقافة، ومضمونها، أي أن الثقافة كانت امتيازاً لفئة احتكرت السيطرة على وسائل الانتاج، من جهة وعلى الحياة الاجتماعية من جهة أخرى.

ومنذ مطلع هذا القرن ونتيجة للتغيرات السياسية والاجتماعية التي سادت أوروبا، ونتيجة لتعميم التعليم الابتدائي الالزامي في معظم دول القارة الأوروبية، وانحسار الأمية، بدأ مفهوم جديد للثقافة بالتبلور. فشمل مفهوم الثقافة ميادين جديدة لم تكن في الماضي متضمنة فيما يدعى بالحياة الثقافية. ويكاد المفهوم الجديد للثقافة يتضمن مختلف أشكال الاكتساب الاجتماعي للانسان، بما في ذلك أنماط الحياة، ووسائل التعبير الجمالية، وأشكال الفعاليات الذهنية، والتقاليد والعادات، وسلم القيم الاجتماعية والأخلاقية، والخصائص السيكولوجية للشعوب، وهي باختصار «مجموع ما أبدعته الانسانية، أو جميع ما أضافه الانسان الى الطبيعة، وماسما به عن المستوى الحيواني»، مما جعل الثقافة تشمل جميع جوانب الحياة، وكل طرائق التفاهم. أن هذا الفهم للثقافة يتجاوز مسالة التمييز بين تراث ثقافي مكتوب، وآخر شفهي، وهو في الوقت نفسه يرفض القول بدونية ثقافة الجماهير، وسمو ثقافة النخبة، وكذلك فهو يرفض القول بوحدانية الثقافة